ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

المؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني
أبو راس الناصر المعسكري أنموذجًا

د. عبد القادر مرجاني
أستاذ (متعاقد) تاريخ حديث ومعاصر
المركز الجامعي أفلو
الأغواط – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

اصطبغت الحياة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني بميزة مهمة وهي قلة العناية بالثقافة بصفة عامة وعلم التاريخ بصفة خاصة، لأن المؤسسة السياسية القائمة آنذاك لم تكن تهتم بالثقافة، ولم تعتبر التاريخ علمًا قائمًا بذاته، وبالتالي عانت الكتابة التاريخية واختلفت من مؤرخ إلى آخر حسب الرؤى التي يتبناها، وفي ظل هذه الأوضاع والظروف ظهر أبو راس الناصر بكتاباته البسيطة، وتآليفه العديدة، وتصانيفه المختلفة، حيث تعتبر كتاباته التاريخية وإسهاماته في التدوين التاريخي ذات أهمية بالغة في الفترة العثمانية. يُعَدّ أبو راس الناصر من كبار أعلام الجزائر فهو مؤرخ وفقيه ومفسر وأديب وشاعر، ولد بضواحي ولاية معسكر ١٧٣٧–١٨٢٣م، تميز بقوة الذاكرة والقدرة على الحفظ والاسترجاع كأن العلوم كتبت بين عينيه حتى سمي بحافظ المغرب الأوسط، كما أنه عرف بكثرة التآليف التي تجاوزت ٦٣ كتاب و١٣٧ مصنفا في شتى العلوم والفنون، فأعتبر ثاني مؤرخ بعد ابن خلدون بما كتبه، ولا يمكن للباحث في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني أن يكتب موضوع بحثه دون الرجوع إلى مصادر أبي راس الناصر المعسكري ليستقي منها مادته التاريخية فهي غنية ودسمة بالمعلومات، وعليه فإننا في هذا المقال سنحاول أن نسلط الضوء على هذه الشخصية التاريخية من خلال التعرف على مولده ونشأته وأهم شيوخه ورحلاته في الشرق والغرب، ومنهج كتاباته ومميزاتها وأخيرًا قيمة كتاباته.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ ديسمبر ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ فبراير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

العهد العثماني، أعلام الكتابة التاريخية، الجزائر، أبي راس الناصر، المؤرخون الجزائريون

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054907

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد القادر مرجاني. "المؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني: أبو راس الناصر المعسكري أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الثالث والأربعون؛ مارس ٢٠١٩. ص ٤٧ – ٥٣.

مُقَدِّمَةُ

اصطبغت الحياة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني بميزة مهمة وهي قلة العناية بالثقافة بصفة عامة وعلم التاريخ بصفة خاصة، لأن المؤسسة السياسية القائمة آنذاك لم تكن تهتم بالثقافة، ولم تعتبر التاريخ علمًا قائمًا بذاته، وبالتالي عانت الكتابة التاريخية واختلفت من مؤرخ إلى آخر حسب الرؤى التي يتبناها، وفي ظل هذه الأوضاع والظروف ظهر أبو راس الناصر بكتاباته البسيطة، وتآليفه العديدة، وتصانيفه المختلفة، حيث تعتبر كتاباته التاريخية وإسهاماته في التدوين التاريخي ذات أهمية بالغة في الفترة العثمانية، وتكمن أهمية الموضوع في كون أن العديد من المؤرخين الجزائريين خلفوا تراثًا تاريخيًا ضخمًا أودعوه في عدد من المؤلفات على اختلاف مواضيعها، اعتمدوا فيها على الإحالة والربط بين تلك المؤلفات جعلها تبدو كعمل واحد متكامل، ولكن مع الآسف كان مصير كثير من تلك المؤلفات الضياع أو الفقدان سواء في الحروب عن طريق السلب والنهب،

أو الإتلاف والإهمال، بما فيها كتابات أبو راس الناصر المعسكري وهو ما جعل القارئ والدارس لأي كتاب من كتبه يلمس في نفسه رغبة في البحث عن تلك المؤلفات المفقودة وهو ما دفعنا للخوض في مثل هذه المواضيع، وقد اعتمدنا على المنهج التحليلي لمعرفة منهج الكتابة عند أبو راس الناصر وقيمة كتاباته العلمية، ومن أهم الدراسات التي تناولت حياة أبو راس وكتاباته ومنهجه أطروحة الدكتوراه للأستاذ عبد القادر بكاري، والمعنونة بـ "منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني ١٥١٩-١٨٣٠" بجامعة وهران، ومقال للدكتور بن عتو بلبروات والمعنون بـ "التراث المخطوط لأبي راس الناصري" ضمن مجلة الحوار المتوسطي العدد الخامس.

أولاً: أبي راس الناصر مولده ونشأته

١/١-اسمه ونسبه:

هو الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن الجليل[١]، الراشدي قبيلة، المعسكري بلدة، الجزائري قطرا، ويشير في كتابه **"فتح الإله ومنته"** إلى أن نسبه متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول (ﷺ).[٢]

٢/١-مولده ونشأته:

ولد أبو راس في سنة ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م وتوفي سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م[٣]، ولد بين جبل كرسوط وهونت بالغرب الجزائري، ثم رحل به والده[٤] إلى متيجة أين توفيت والدته[٥] والتي كانت صالحة تقية تشبه رابعة العدوية في السخاء والصلاح، وبعد وفاتها اتجه والده إلى منطقة مجاجة واعتكف هناك على تعليم القرآن للرجال والصبيان، وتزوج هناك عدة نساء إلى أن توفي ودفن بروضة الشيخ أحمد بن عبد الله بـ "أم الدروع"، وبعد وفاة والد انتقل هو وأخوه الأكبر السيد ابن عمر، والسيد عبد القادر إلى المغرب أين حفظ القرآن وتعلم أحكامه على ظهر قلب[٦]، وقد عاش أبو راس حياة فقر واحتياج حيث يقول: "... وقد استمررت عشر سنين عرياناً لا لباس لي إلا خرق كالعدم، وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي، ولما قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت ثم أبيع وأكسى ..."[٧].

عاد أبو راس إلى معسكر، ومنها بدأ يرتحل من مكان لآخر لطلب العلم، ولما ختم رحلته لطلب العلم عاد إلى بيت أخيه بـ "وادي غرام" في أحواز معسكر، فاشتغل بالتدريس والقضاء في تلك الجهة، ثم خطب امرأة من أولاد الشيخ محمد بن يحي سيد أهل "غريس" وتزوجها، عاد أبو راس مرة أخرى إلى أم عسكر مرة أخرى وبدأ يدر فيها ليلاً ونهارًا لمدة ٣٦ سنة متصلة، حتى اشتهر أمره بين الناس في الجزائر وفي أقطار المغرب والمشرق، فكان يحضر مجلسه في بعض السنين ٧٨٠ طالبًا، وهو ما جعل بعض البايات يخصصون له كرسيًا ليستعين به على الدرس لما علموا بكثرة الطلبة وازدحامهم عنده[٨].

٣/١-رحلاته:

قام أبو راس بعدة رحلات إلى مدن إفريقيا الشمالية والمراكز العربية الكبرى كالقاهرة والقدس وذلك من خلال رحلتي الحج اللتين قام بهما الأولى سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م والثانية سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م[٩].

فرحل في أول الأمر أبو راس إلى فاس فرحب به علماؤها، وممن لقيهم العالم العامل الشيخ حمدون (ت. ١٣٣٢ه) والنحوي الشيخ عبد القادر بن شقرون (ت. ١٢١٩ه)، والفقيه النابه الشيخ محمد بن بنيس (ت. ١٢١٤ه)، والفقيه الهواري (ت ١٢٢٠هـ)، وبعدها عاد إلى تلمسان. ذهب بعدها إلى تونس ونزل على شيخها المفتي محمد بن المحجوب (ت.١٢٤٣ه) واجتمع بالعالم الكبير والأديب الأريب الرياحي (ت. ١٢٦٦هـ)، ثم ركب البحر متجها إلى مصر، فلقي بها أهل العلم والأدب منهم الشيخ مرتضى الذي روى عنه أوائل الصحيحين، ورسالة القشيري في التصوف، ومختصر العين، ومختصر الكنز الراقي، كما لقي الشيخ عصمان الحنبلي الذي قرأ عليه المذهب الحنبلي[١٠].

ثم رحل إلى مكة واجتمع بعلمائها وفقهائها كالعلامة عبد الملك الحنفي المفتي الشامي القلعي (ت. ١٢٢٩ه) الذي أخذ عنه بعضا من الحديث، ونبذة من "الكنز" وشيئا من التفسير، كما اجتمع بالشيخ العارف عبد الرحمن التادلي المغربي وقرا عليه شرح العارف بالله ابن عباد على "الحكم" ثم طوف بالمدينة المشرفة، وكان له بها مناظرات وأبحاث مع علمائها. رحل بعدها إلى الشام وتحدث مع علمائها في مسألة من "الحبس" نص عليها الشيخ أبو زكريا ابن الحطاب (ت ٩٩٥ه) وفي النهاية رجعوا إلى رأيه ووافقوه بعد الدليل القاطع، وجمعوا له مالا كثيرًا عندما أراد السفر

تكريمًا له وتعظيمًا، من هناك دخل إلى الرملة إحدى مدن فلسطين ولقي مفتييها وعلمائها وكان بينهم مجادلات حول الدخان والقهوة، فأجابهم بما ذكره نص أبي السعود (ت.٩٥١هـ) فأكرموا وفادته، ومنها رحل إلى غزة فزار قبر هاشم ثالث آباء النبي (ﷺ)، ولقي علمائها وأعيانها فأكرموا ضيافته، وكان بينهم مناظرات في مسائل مختلفة، اعترفوا له بها بالفضل وسعة العلم، إلا أنه لم يجد عالماً واحدًا يعول عليه كما يذكر عندما غادر إلى العريش[١١].

٤/١-شيوخه:

من مميزات التعليم في العهد العثماني وقبله أنه كان يؤخذ من أفواه الرجال (الشيوخ) الموثوقين، وكثرة عددهم، وفي هذا الشأن قال أبو راس "... ومازال الناس يفتخرون بكثرة الشيوخ، فكان للإمام مالك ٩٠٠ شيخ، وللبخاري أكثر، ومن العجب أن ابن جماعة الكناني الشافعي له ألف وثلاثمائة شيخ ..."[١٢]، وأبو راس بدوره يفتخر بكثرة شيوخه فأفرد لهم بابا خاصا في كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، كما خصهم بتأليف سماه "لب أفياخي في عدة أشياخي" عرض فيه أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم ومن أهمهم:

١/ والده الشيخ أحمد الذي تعلم عنه بعض سور القرآن الكريم وكتابة بعض الحروف.

٢/ الشيخ منصور صاحب القراءة المتقنة، فحفظ القرآن بروايتي قالون وورش.

٣/ محمد ابن مولاي علي بن سحنون قاضي أم عسكر والشيخ علي بن شنين قرأ عنهم الفقه المالكي.

٤/ الشيخ عبد القادر المشرفي[١٣] في "عواجة" صاحب تأليف "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين كبني عامر" فختم عنه المختصر[١٤].

٥/ الشيخ العربي بن نافلة وأخيه أحمد بن نافلة الواسع في تحقيق الصرف وبيوع الآجال.

٦/ الشيخ محمد الصادق بن أفغول الذي كان خبيرًا بعلم الشريعة.

٧/ الشيخ ابن علي بن أبي عبد الله المغيلي.

٨/ الشيخ أحمد بن عمار، ومحمد بن الحفاف، والمفتي علي بن عبد القادر المعروف الأمين.

٩/ الشيخ الطيب بن كيران الحافظ زالمفتي والخطيب والعالم بالسير وأخبار السلف.

١٠/ الشيخ عبد القادر بن شقرون نحوي فاس.

١١/ الشيخ المفتي محمد بن قاسم المحجوب الذي درس عليه فقه النوازل، ومحمد بيرم مفتي الحنفية، قرأ عليه فقه أبي حنيفة بمختصر الكنز.

١٢/ الشيخ عبد الله الشرقاوي[١٥] الذي درس عنه الفقه الشافعي، والفقه الحنفي على الشيخ أبا الفيض مرتضى الزبيدي[١٦]، والفقه الحنبلي على الشيخ عثمان بمختصر الشيخ مرعى بن يوسف المقدسي[١٧].

١٣/ والشيخ محمد بن القندوز فقرأ له مع الطلبة من أول الجزء الثاني للمختصر إلى المجنون، مع كتاب النكاح، ثم درس عند كما درس عند الشيخ محمد بن عبو بن عيني لمدة سنة، ثم عند تلميذه الألمعي الفقيه الشيخ عبد القادر بن عثمان، وفي رحلته للحج قرأ على الشيخ مرتضى.

ثانيًا: مؤلفات أبو راس الناصر التاريخية

اشتهر أبو راس بالتآليف العديدة التي اعتمد فيها على الحفظ والنقل والرواية، فقد ذكر عن نفسه أن ما ألفه بلغ ٦٣ كتابًا ونسب إليه ١٣٧ مصنفًا من مختلف الأغراض بين كبير وصغير، وبين تأليف وشرح وتعليق وتلخيص منها ما نشر ومنها ما زال محفوظا، ومنها ما يعتبر في حكم المفقود، مثل أخبار ملوك الترك والروم وملوك فرنسا، وأنساب الجن، وقد ذكر أبو حامد المشرفي أن تآليف شيخه أبو راس أوشكت أن تزيد على عدد أيامه، فهو أشبه بأسد بن الفرات في غزارة علمه واطلاعه على المذهب المالكي[١٨]. ولم يضاهيه في هذه الميزة من الجزائريين أحد باستثناء أحمد البوني، وغلب على أبو راس في تآليفه جميعا طابع العصر (أواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشى الشروح، وجعل للمتن الواحد عدة شروح، واعتمد على حفظه في تآليفه من التكرار والاستطراد وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تماشيا مع العصر، ولم يركز جهده على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا، فألف كما يشهد كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" في التفسير والحديث والفقه والقراءات والأدب واللغة والعقائد والتاريخ والتراجم والرحلات[١٩].

١/ كتاب "ذيل روض القرطاس في ملوك بني وطاس" تناول فيه تاريخ المغرب من القرن الثامن إلى أوائل القرن الثالث عشر هجري، وهو كتاب هام لم يصل إلينا سوى اسمه.

٢/ كتاب "الزمردة الوردية في الملوك السعدية" يتطرق فيه إلى تاريخ الملوك السعديين بالمغرب،

والفترة التي يتناولها قليلة المصادر وهو غير متوفر[٢٠].

٣/ كتاب "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية" ونفس الكتاب له عنوان آخر هو "شرح نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان" قام بتخصيصه لمدح محمد باي الكبير وتسجيل مآثره الحربية في فتح وهران وافتكاكها من يد الإسبان أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فهو يتناول أحداثا كثيرة بالشرح والتعليق، ويؤرخ لوقائع مختلفة عن تاريخ القطر الجزائري عامة[٢١]، ولكن الباي طلب منه شرحها لغموض عباراتها وصعوبة ألفاظها فكتب شرحًا له سماه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" وتوسع فيه حتى جاء في جزأين[٢٢].

وفي سنة (١٢١١هـ/ ١٧٩٦-١٧٩٧م) توجه أبو راس إلى المغرب الأقصى، فاستقبله السلطان بحفاوة وحظوة فمكث في مدينة تطوان لمدة من الزمن، وأخذ يشرح قصيدته السابقة متوسعا في الشرح ليشمل تاريخ وهران وحياة الباي محمد الكبير وسواحل المغرب الإسلامي والأندلس، وسمى هذا الشرح "روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان"، وأهداه إلى السلطان سليمان داعيا له بالتوفيق في فتح مليلية كما فتح الباي محمد الكبير وهران. أما الشرح الثالث فقد سماه "الغرض المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب"، ويبدو من عنوانه أنه اهتم أكثر بتاريخ الأندلس وثغور المغرب الإسلامي[٢٣].

٤/ كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" هو كتاب يقع في خمسة أبواب قام بتحقيقه الدكتور محمد بن عبد الكريم، وهو يقدم لنا حياة أبوراس نفسه، وتحدث فيه المؤلف عن أهله وبيئته وشيوخه وعلومه وأسفاره ومن لقيهم من علماء المغرب والمشرق وما سئل عنه من المسائل العلمية وإجاباته على ذلك، وأخيرًا يذكر مؤلفاته في كل فرع من فروع المعرفة الشائعة في وقته، قام بتأليف سنة ١٢٣٣هـ، وهو كتب يحتوي على معلومات هامة عن علماء العصر والعلاقات السياسية بين الدول العربية والمستوى العلمي السائد آنذاك وبعض أخبار المذاهب الدينية[٢٤].

٥/ كتاب "زهرة الشماريخ في علم التاريخ" سجل فيه صاحبه معلومات قيمة وفي مقدمته يشير إلى ما اشتمل عليه من ذكر الأمم الماضين الأقدمين إلى بعثة خاتم النبيين، وأن ما تحدث عنه بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة لم يرد سوى عن طريق الانجرار، ويبرز مدى اهتمام قدماء علماء الفرس والروم واليهود والبربر والمسلمين بعلم التاريخ، وأن من أسباب تناوله هذا الموضوع أن النسب والتاريخ ضعفا في هذا الزمان واندرسا[٢٥]، قسم أبو راس المعلومات التي جمعها وعالجها ضمن ٦٣ عنوان منها ٤٣ عنوان مستقلاً، تبدأ جميعها بعبارة الخبر، أولها موضوع تحت عنوان "الخبر عن العرب العاربة" وآخرها تحت عنوان "الخبر عن أيام العرب وأيام حروبهم وتداولها[٢٦].

٦/ كتاب "نباهة الغمر من أنباء العمر بأبناء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء" وهو يتحدث فيه عن التاريخ السياسي لبعض البلدان التي يرجح أن تكون عربية، وقد حذا حذو الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الحجار العسقلاني صاحب كتاب "أنباء الغمر في أبناء العمر"، وهذا المخطوط هو في ثلاث أجزاء يتناول التاريخ السياسي والثقافي لمصر والشام، وهو متوفر في المكتبة الوطنية الجزائرية ١٥٩٧، ١٥٩٨، ١٥٩٩، ١٦٠٠[٢٧].

٧/ كتاب "درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة" سجل فيه الحروب التي دارت بين العثمانيين والدرقاويين في أوائل القرن التاسع عشر، ولكنه في حكم المفقود[٢٨].

٨/ المنى والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول.

٩/ در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.

١٠/ المعالم الدالة على الفرق الضالة.

١١/ الوسائل إلى معرفة القبائل.

١٢/ مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتمى إلى الشرف والذهب.

١٣/ الخبر المعلوم في كل من اخترع نوعًا من أنواع العلوم.

١٤/ تاريخ جربة[٢٩].

ثالثًا: منهج الكتابة عند أبي راس وأهم مميزاتها

اكتسب أبو راس الناصر ثقافة واسعة بانكبابه على المطالعة واتصاله بالعلماء، ومواظبته على حفظ العلوم ساعدته على ذلك حتى عرف بحافظ المغرب الأوسط، وقد احتك بالعديد من علماء عصره الذين رجع إليهم وأخذ عنهم مثل محمد الصادق أفغول، ومحمد بن جعدون وأحمد عباد، ومحمد بن الشاهد، وعلي بن

الأمين، ومحمد بن مالك بمدينة الجزائر، وغيرهم من العلماء[٣٠]، وهو ما أثر في لغته في كتاباته التاريخية التي اتسمت بالسهولة والوضوح مطابقة لأسلوب عصره، وقد جمعت بين محتوى التاريخ ومظهر الأدب في وقت واحد، فامتزجت فيها الرواية بالنقل واصطبغت الحقائق التاريخية بالعواطف[٣١]، وأهم النقاط التي ميزت كتابات أبي راس هي:

*توظيفه لبعض التعابير العامية والمفردات غير الفصيحة، شأنه في ذلك شأن علماء عصره سواء في المغرب أو في المشرق، كما أنه مال إلى استعمال المحسنات اللفظية مثل السجع والطباق والاستعارة، وتجلى هذا بوضوح في مقدمة مؤلفه "زهرة الشماريخ" بحيث أظهر صورة تقديرية عن ملكة الحفظ[٣٢].

*عدم ترتيبه للمعلومات وتداخل الروايات والتكرار حيث أخذ بالطريقة التقليدية وانتهج ما كان متبعًا في عهده، فسجل الأحداث وروى القصص مع الاستشهاد بالقرآن الكريم، الحديث النبوي، والأمثال والحكم نقلاً عن ابن خلدون[٣٣].

*التزامه بالأمانة العلمية في نقله من المصادر واهتمامه بآراء العلماء والمؤرخين الذين نقل عنهم وإبراز أرائهم ومواقفهم ومناقشتها في بعض الأحيان بما يدعو إلى التأييد أو المخالفة، من ذلك ما ذكره عن ذي القرنين حيث يورد آراء مجموعة من المؤرخين والعلماء مثل: ابن كثير، ابن عباس، ابن السائب[٣٤].

*استهلال فقراته بعبارات متنوعة منها: والحاصل، واعلم، وأما، وكما، ثم أن، والأمثلة كثيرة في مخطوط الشماريخ، وكتاب فتح الإله ومنته، فهو يجتهد في تلوين أساليبه بعبارات مختلفة أثناء الشرح[٣٥].

*ومن خلال كتاب "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" نجد أبو راس قد انتهج في شرحه ما كان متبعًا في عهده وما اعتمده في شروحه الأخرى مثل شرح العقيدة وأسماع الأصم، فقد كان يثبت البيت ثم يشرح ألفاظه لغويًا، ويسجل الأحداث المرتبطة به مع استشهادات من القرآن والحديث وإثبات بعض النوادر والحكايات التي غالبًا ما يعنونها بـ "فائدة، أو نادرة، أو تنبيه، أو تتمة غريبة".[٣٦]

وهو في كل ما يعرضه من أحداث وما يسجله من وقائع ملتزم بخصائص أسلوب عصره فجاءت لغته منمقة تميل إلى السجع وتتميز بمفرداتها البسيطة وتعبيراتها القريبة من العامية، ولعل هذا ما جعل كتابه هذا يجمع بين محتوى التاريخ ومظهر الأدب إذ امتزجت فيه الرواية بالنقل واصطبغت الحقائق بالعواطف، وإن كانت الروايات التاريخية غلبت عليه، وهو ما يسمح لنا بالقول بأن أبا راس كان مؤرخًا ناقلاً متتبعًا للأخبار معتمدًا على من سبقه من المؤرخين مثل ابن خلدون وابن خلكان والتنسي، كما كان أديبًا مادحًا مؤثرًا في العواطف، مستشهدا بأقوال فحول الشعراء مثل المتنبي وأبي فراس وأبي غراب الصفاقسي[٣٧].

رابعًا: قيمة كتابات أبو راس

يعتبر أبو راس الناصر من أبرز المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية، عاصر أحداثا هامة في حياة بلاده وفي حياة العالم الإسلامي قاطبة مثل حملة أوريلي وحملة اللورد إكسموث على الجزائر، وفتح وهران الثاني وثورة الطريقة الدرقاوية ضد الدولة العثمانية، أما بالنسبة للعالم الإسلامي فقد عاصر ظهور الدعوة الوهابية والحملة الفرنسية على مصر وصعود محمد علي، وبداية الإصلاح في الدولة العثمانية، وقد أثرت هذه الأحداث وغيرها على مزاجه وأحكامه[٣٨].

لقد كان عصر أبو راس الناصر عصر تدهور وانحطاط في الآداب والعلوم، كما كان عصر اضطراب سياسي واجتماعي، وقد شكا من ضعف الحياة العلمية في عهده بقوله: "إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده، وقلبت دياره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، لاسيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل"[٣٩].

واستطاع بفضل موهبته وعبقريته أن يرتفع عن مستوى عصره الفكري، وأن يعيد للدراسات العلمية الفقهية واللغوية مجدها وجلالها، كما تشهد بذلك مؤلفاته وشهادات العلماء المعاصرين له[٤٠]. كان محيط بالمذاهب الأربعة ومتخصص في المذهب المالكي، وقد تعمق في دراسة خليل بن إسحاق فاختصر مسائله واستوعبها، ثم انتصب للتدريس

وإفادة الطلاب، ولم يشغله التدريس عن التأليف فألف أكثر من خمسين كتاب[٤١].

خامسًا: وفات أبو راس الناصر

توفي أبو راس الناصر سنة (١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م)، ودفن بمعسكر على شاطئ النهر الفاصل بين داخل البلد وقرية بابا علي وعليه بناء مشهور له[٤٢]، وقد أبنه محمد بن يوسف الزياني في دليل الحيران بقوله: "وفي وقته (أي زمن الباي حسن آخر بايات وهران) مات مجدد القرن الثالث عشر ذو التآليف العدية، والتصانيف المديدة، الشريف الأمجد، العلامة الفرد الحافظ أبو راس محمد بن عبد القادر، والذي ليس له نظير ولا مثيل، يوم الأربعاء خامس عشر شعبان سنة ١٢٣٨ه، من له العز والشرف وصلى عليه العلامة الأسد الهائج فريد وقته الشيخ أحمد الدايح[٤٣].

كان رحمه الله إمامًا في المعقول والمنقول، وإليه يرجع في الفروع والأصول ورحل في طلب العلم واكتساب المعارف ولقي الأفاضل من أهل مصر وتونس وفاس وأخذ عنهم العلم، ودرس وأفاد ورفع منار العلم وأشاد وكان يدعى في زمانه الحافظ لقوة حفظه وتمكنه متى شاء من استحضار مسانده كأن العلوم كتبت بين عينيه، له تآليف مفيدة بديعة سارت بها لعزتها الركبان واشتدت إليها لنفاستها رغبة القاصي والدان، فمنها رحلته التي ذكر فيها سياحته للمشرق والمغرب وذكر من لقي فيها من الأعيان وما جرت فيه المذاكرة بينهم وما يتنزه الطرف فيه ويتعجب[٤٤].

خَاتِمَةٌ

إن كتابات أبو راس الناصر كتابات قيمة ومهمة، ومن أهم الملاحظات التي يمكن أن نخرج بها حوله وحول كتاباته نجملها في النقاط الآتية:

١/ يعتبر أبو راس الناصر من المؤرخين الجزائريين الجهابذة الكبار والمجتهدين الأفذاذ، فقد كان ظاهرة عصره في الحفظ، فتيمز بالقدرة القوية على الاستيعاب والذكاء والفطنة، واستطاع التفوق على أقرانه من المتمدرسين في شتى الدروس التي كانوا يتلقونها من شيوخهم.

٢/ عاصر أبو راس الناصر بوادر النهضة الجزائرية الحديثة في عهد الداي محمد بن عثمان باشا ١٧٦٦-١٧٩١ ويعتبر أحد كوادرها بمعسكر، وهو ما حفزه على التأليف والكتابة في تخصصات مختلفة العقلية منها والنقلية.

٣/ لقد امتاز أبو راس بكثرة التأليف، إلا أنه هناك بعضها منسوب إليه بالخطأ مثل كتاب "عجائب الأخبار ذات التأسيس فيما وقع بين المسلمين والفرانصيص"، فالكتاب يتحدث عن حوادث الاحتلال الفرنسي وموقف الزمالة والدوائر منه وتجنيد الشباب المسلم في الجيش الفرنسي، وإذا أخذنا تاريخ وفاة أبو راس في الحسبان أي سنة ١٨٢٣م، فإنه يستحيل أن يكون الكتاب له، لأنه لم يعاصر هذه الأحداث ولا يمكن أن يتوقع حدوث الأشياء بهذه الدقة[٤٥].

٤/ وما يمكن أن نلفت إليه الانتباه أيضا هو أن أبو راس قد ترك لنا تراثا ثقافيًا كبيرًا، لكن ضاع منه الكثير في حياته وبعد وفاته بفعل عدة عوامل:

- تأليفه بعض الكتب التي انتقد فيها كثيرًا من أنساب القبائل البربرية المنتمية لآل البيت، وهو ما انجر عليه إحراق الكثير من كتبه وتآليفه وضياعها.
- تحديد موقفه من بعض الحركات المناوئة للحكم العثماني في الجزائر، التي اشتد لهيبها في مطلع القرن التاسع عشر، ومن بينها الحركة الدرقاوية التي ألف فيها: "درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة" وكتاب "المعالم الدالة على الفرق الضالة"[٤٦].
- تسليط كتابات أبو راس الناصر الضوء على سياسة الملوك وسيرهم وفضحه وكشفه لعيوب البعض منهم، كان له دور في ضياع مخطوطاته، مثل كتاب "نباهة الغمر من أنباء العمر بأبناء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء".

الهَوامِشُ:

(١) يذكر أبو القاسم سعد الله أن نسبه العائلي الصحيح هو الناصر وليس الناصري، وهذا حسب ما ورد في نسخة شرحه الشقائق النعمانية الذي شرح فيه روضة السلوان للفيجيجي، ينظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠-١٨٣٠**، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨، تهميش ص ٣٧٧.

(٢) محمد أبو راس الجزائري، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠، ص ٢٥.

(٣) محمد أبو راس، المصدر السابق، مقدمة الكتاب ص١١.

(٤) كان والده من القراء الماهرين والأساتذة المشهورين، ومن أهل الحزم في القرآن والجد، ساعي في مساعي الخير والأدب وأما جده الشيخ عبد القادر فقد كان أعجوبة الزمان في الولاية والصلاح والفضل، كاد أن يكون مثل الفضيل بن عياض، يُنظر: محمد أبو راس، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٥) **والدته**: هي زولة بنت السيد الفرح ابن الشيخ القطب السيد اعمر بن عبد القادر التوجاني دفين جبل التوميات، نشأت في بيت علم وصلاح وبركة وصدق وإصلاح، يُنظر: محمد أبو راس، المصدر السابق، ص١٨.

(٦) محمد أبو راس، المصدر السابق، ص١٨-١٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢-٢٣.

(٩) اغناطيوس كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ق٢، جامعة الدول العربية، ص ٧٦٩.

(١٠) محمد أبو راس، المصدر السابق، ص ١٠٧-١١٠.

(١١) محمد أبو راس، المصدر السابق، ص ١٠٢.

(١٢) محمد أبو راس، المصدر السابق، ص ٤٢.

(١٣) **المشرفي**: هو أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن جلال المشرفي الغريسي ثم المعسكري، توفي يوم الخميس عاشر رمضان سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨، ورثاه تلميذه أبو راس بقصيدة طويلة النفس. يُنظر: محمد أبو راس، المصدر السابق، تهميش ص ٣٤.

(١٤) هو مصنف الشيخ خليل بن إسحاق المالكي.

(١٥) تولى وظيفة رئيس ديوان القاهرة في عهد الفرنسيين ومشيخة الجامع الأزهر، توفي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م، ينظر: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج٢، عالم المعرفة، الجزائر، ط خ، ٢٠٠٩، تهميش ص ٣٠٠.

(١٦) **الشيخ مرتضى الزبيدي:** هو من كبار علماء الأزهر يكنى بأبي الفيض لفيض وغزارة علمه، عاصر العلامة أبو راس الناصر، من مآثره شرحه للقاموس في أربعة عشر مجلداً وسماه تاج العروس، توفي سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م. ينظر: بن بلبروات، المرجع السابق، تهميش ص ٨٥.

(١٧) بكاري عبد القادر، **منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (١٥١٩-١٨٣٠)**، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، ٢٠١٥/٢٠١٦، ص ٢٥٥. يُنظر أيضًا أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص ٤٢-١٤٣.

(١٨) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٤٦١.

(١٩) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج ٢، ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٢٠) رابح بونار، **أبو راس المعسكري وتاريخ مدينة الجزائر**، من كتاب تاريخ المدن الثلاث "الجزائر- المدية- مليانة"، دراسة وتعليق: عبد الرحمن الجيلالي، دار الأمة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧، ص ١٩٢.

(٢١) المرجع نفسه، ص ١٩٢.

(٢٢) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج ٢، ص ٣٠١.

(٢٣) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج ٢، ص ٣٠١.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٣٣٩.

(٢٥) بن داهة عدة، **ملاحظات نقدية حول مخطوط "زهرة الشماريخ في علم التاريخ" لأبي راس الناصري**، المجلة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران، ع١٠، ٢٠١٣، ص ٥٢.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٥٣.

(٢٧) بن عتو بلبروات، **التراث المخطوط لأبي راس الناصري**، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس، ع٥، ص ٨٢.

(٢٨) عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المرخين في العهد العثماني، ص٢٥٨.

(٢٩) عبد الحق زريوح، **أبو راس الناصري ومؤلفاته**، مجلة التراث العربي، دمشق، ع ٩٨، ٢٠٠٥، ص ٢٣٠.

(٣٠) ناصرا الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٤٦١.

(٣١) محمد أبو راس، **زهر الشماريخ في علم التاريخ**، تح: بن عمر حمدادو، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، ص ١٤.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣٦) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٤٦٤-٤٦٥.

(٣٧) المرجع نفسه، ص ٤٦٥.

(٣٨) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠-١٨٣٠**، ج٢، ص ٣٧٧.

(٣٩) محمد أبو راس، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، ورقة ٢، نقلاً عن أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج ١، ص ٨٥.

(٤٠) رابح بونار، المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٤١) رابح بونار، المرجع السابق، ص ١٩١.

(٤٢) أبي القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ١٩٠٦، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤٣) ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ٤٦٠-٤٦١.

(٤٤) أبي القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤٥) بن عتو بلبروات، المرجع السابق، ص ٨١.

(٤٦) المرجع نفسه، ص ٨٢.